الفصل الرابع
الحكمة

تمهيد:

إن الحكمة ملمح من ملامح الوسطيَّة، وبيان هذا: أن التوسط هو توسط معنوي، وتحديد هذا التوسط يكون بمراعاة جميع الأطراف، تحقيقاً للمصالح، ودرءاً للمفاسد، وهذه هي الحكمة الشرعية وبعبارة أخرى: فإن الوسطيَّة أمر نسبي، يخضع تحديده لعوامل عدة لا بد من مراعاتها، ولا يتحقق ذلك إلا بإتقان الحكمة. ومن أجل إلقاء مزيد من الضوء على هذه الحقيقة سأبين الحكمة في اللغة وفي الاصطلاح الشرعي وعند المفسرين وأنواعها ودرجاتها وبعض الأمثلة في تطبيقها.

المبحث الأول
الحكمة في اللغة والاصطلاح

أ ـ في اللغة: جاءت الحكمة في اللغة بعدة معانٍ، منها:

١ ـ تستعمل بمعنى: العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن، والإنجيل، وأَحْكَمَ الأمر: أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد[١].

٢ ـ والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم[٢].

---

(١) القاموس المحيط، باب الميم، فصل الحاء، (١٤١٥).
(٢) لسان العرب، باب الميم، فصل الحاء، (١٢/١٤٣).

٣ ـ والحكيم: المتقن للأمور، يقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب[١].

٤ ـ والحكم والحكيم هما بمعنى: الحاكم والقاضي، والحكيم فعيل بمعنى فاعل، أو هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، فهو فعيل بمعنى: مفعل[٢].

٥ ـ والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل[٣].

٦ ـ والحكيم: المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجام، لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد، والسورة المحكمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يلحق بها ما يخرج عنها ويزاد عليها ما ليس منها.

والحكمة من هذا، لأنها تمنع صاحبها من الجهل، ويقال: أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد، فهو محكم وحكيم عن التكثير[٤].

٧ ـ والحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس، سميت بذلك، لأنها تمنعه من الجري الشديد، وتذلل الدابة لراكبها، حتى تمنعها من الجماح ومن كثير من الجهل، ومنه اشتقاق الحكمة، لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل[٥].

٨ ـ والحكم: هو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة، لأنها تمنعها، يقال: حكمت الدابة وأحكمتها، ويقال: حكمت السفيه وأحكمته إذا أخذت على يديه، والحكمة هذا قياسها؛ لأنها تمنع من الجهل، وتقول: حكمت فلاناً تحكيماً: منعته عما يريد[٦].

استعملت في عدة معان تتضمن معنى المنع:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، باب الحاء مع الكاف، مادة حكم (١/ ١١٩) انظر: لسان العرب، باب الميم فصل الحاء، (١٢/ ١٤٠).
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، باب الحاء مع الكاف، مادة، حكم: (١/ ٤١٩).
(٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، كتاب الحاء، مادة: حكم (١٢٧).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/ ٢٨٨) مع التصرف.
(٥) انظر: المصباح المنير، مادة حكم، (١/ ١٤٥).
(٦) مقاييس اللغة (٢/ ٩١)، باب الحاء والكاف، مادة حكم.

فالعدل: يمنع صاحبه من الوقوع في الظلم.

والحلم: يمنع صاحبه من الوقوع في الغضب.

والعلم: يمنع صاحبه من الوقوع في الجهل.

والنبوة، والقرآن، والإنجيل: فالنبي إنما بعث لمنع من بعث إليهم من عبادة غير الله، ومن الوقوع في المعاصي والآثام، والقرآن والإنجيل وجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله تتضمن ما يمنع الناس من الوقوع في الشرك وكل منكر وقبيح.

ومن فسر الحكمة بالمعرفة فهو مبني على أن المعرفة الصحيحة فيها معنى المنع، والتحديد، والفصل بين الأشياء، وكذلك الإتقان، فيه منع للشيء المتقن من تطرق الخلل والفساد إليه، وفي هذا المعنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه لا جميع معناه)[١].

ب ـ تعريف الحكمة في الاصطلاح الشرعي:

ذكر العلماء مفهوم الحكمة في القرآن الكريم والسنة النبوية[٢] واختلفوا على أقوال كثيرة، فقيل: الحكمة هي النبوة، وقيل: القرآن، والفقه به: ناسخة ومنسوخة، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله.

وقيل: الإصابة في القول والفعل، وقيل: معرفة الحق والعمل به، وقيل: العلم النافع والعمل الصالح، وقيل: الخشية لله، وقيل: السنة، وقيل: الورع في دين الله، وقيل: العلم والعمل به، ولا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمع بينهما، وقيل: وضع كل شيء في موضعه، وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة،[٣] وقد ذكر بعضهم تسعة وعشرين قولاً في تعريف الحكمة[٤].

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيمية (٢/ ٧).

(٢) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (١/ ١٦٥).

(٣) تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (١/ ٤٣٦، ٣/ ٦٠ ـ ٦١)، تفسير البغوي (١/ ٢٥٦، ١/ ١١٦)، زاد المسير (١/ ٣٢٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ١٣١)، (٣/ ٦٠ ـ ٦١).

(٤) انظر: تفسير البحر المحيط (٢/ ٣٢٠).

(وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه ﷺ حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة؛ لأنه يمتنع به من السفه، وبه يعلم الامتناع من السفه الذي هو كل فعل قبيح...)[١].

وعند التأمل والنظر نجد أن التعريف الشامل الذي يجمع ويضم جميع هذه الأقوال في تعريف الحكمة هو: (الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه)[٢].

فجميع الأقوال تدخل في هذا التعريف، لأن الحكمة مأخوذة من الحكم وفصل القضاء الذي هو بمعنى الفصل بين الحق والباطل، يقال: إن فلاناً لحكيم بين الحكمة، يعني: أنه بين الإصابة في القول والفعل، فجميع التعاريف داخلة في هذا القول، لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها، وعلم، ومعرفة، والمصيب عن فهم منه بمواضع الصواب يكون في جميع أموره: فهماً، خاشياً لله، فقيهاً عالماً، عاملاً بعلمه، ورعاً في دينه... والحكمة أعم من النبوة، والنبوة بعض معانيها وأعلى أقسامها، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مسددون، مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في الأقوال، والأفعال، والاعتقادات، وفي جميع الأمور[٣].

والحكمة في كتاب الله نوعان[٤]: مفردة ومقرونة بالكتاب فالمفردة كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩) وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ (لقمان: ١٢).

وهذه الحكمة فسرت بما تقدم من أقوال العلماء في تعريف الحكمة، وهذا النوع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٣٣٠).
(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله (٢٧).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١/ ٤٣٦، ٣/ ٦١).
(٤) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٧٨)، والتفسير القيم لابن القيم (٢٢٧).

كثير في كتاب الله. أما الحكمة المقرونة بالكتاب، فهي السنة من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وتقريراته، وسيرته، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ (البقرة: ١٢٩).

المبحث الثاني
العلاقة بين التعريف اللغوي والشرعي

عند التأمل والنظر نجد علاقة قوية بين المعنى اللغوي والشرعي فكلاهما يجعل العلم النافع، والعمل الصالح الصواب المحكم المتقن أصلاً من أصول الحكمة، وعلى هذا فيكون التعريف الجامع المانع للحكمة هو: (الإصابة في القول والعمل والاعتقاد ووضع كل شيء في موضعه بإحكام وإتقان)[١]. والله أعلم.

وبهذا التعريف يتبين ويتضح أن الحكمة لا تقتصر على الكلام اللين أو الترغيب، أو الحلم، أو الرفق، أو العفو... بل هي إتقان الأمور وإحكامها بأن تنزل جميع الأمور منازلها، فيوضع القول الحكيم والتعليم والتربية في مواضعها، وتوضع الموعظة في موضعها، والمجادلة بالتي هي أحسن في موضعها، ومجادلة الظالم المعاند في موضعها كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ويوضع الزجر، والقوة، والغلظة، والشدة، والسيف في مواضعها، وهذا هو عين الحكمة. وقد قال أحكم الحاكمين لسيد الحكماء والناس أجمعين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣) كل ذلك بإحكام وإتقان ومراعاة لأحوال المدعوين، والأزمان، والأماكن في مختلف العصور والبلدان، وبإحسان القصد والرغبة فيما عند الكريم المنان[٢]. ومن أراد البرهان العملي على ذلك فعليه أن ينظر إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ ومعاملته لأصناف الناس، وهو الذي أعطاه الله من الحكمة ما لم يعط أحداً من العالمين[٣].

---

(١) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، لسعيد القحطاني (٣٠).

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ١٦٤)، مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٩٤)، التفسير القيم (٣٤٤).

(٣) انظر: التفسير لابن القيم (٣٤٤).

ومن أفضل التعريفات للحكمة التي يعرف بها علاقتها بالوسطيَّة تعريفي الشيخ عبد الرحمٰن السعدي، والأستاذ سيد قطب رحمهم الله.

قال عبد الرحمٰن بن سعدي رحمه الله: (الحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، ثم قال: وجميع الأمور لا تصح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام)[١].

وقال سيد قطب رحمه الله: (القصد والاعتدال وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال)[٢].

وكلامهما في غاية الدلالة على صلة الحكمة بالوسطيَّة.

وقال ابن القيم رحمه الله: (وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان)[٣]. وقال في موضع آخر: (هي: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي)[٤].

وقوله: (على الوجه الذي ينبغي)، من أقوى دلالات الوسطيَّة، وقال في موضع آخر: (الحكمة أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه)[٥].

ونخلص مما سبق: أن الحكمة لا بد من اعتبارها عند تحديد معنى الوسطيَّة؛ بل إن الالتزام بالوسطيَّة وعدم الجنوح إلى الإفراط أو التفريط هو عين الحكمة وجوهرها، وذلك أن الخروج عن الوسطيَّة له آثاره السلبية، إما عاجلاً، أو آجلاً، وهذا يخالف الحكمة وينافيها.

ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

---

(١) انظر: تفسير السعدي (١/ ٣٣٢).
(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٣١٢).
(٣) انظر: التفسير القيم (٢٢٦).
(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٧٩).
(٥) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٧٨).

أمر الابن بالصلاة لسبع سنين، وضربه عليها ضرباً غير مبرح بعد بلوغ العاشرة، فإننا نجد التوسط في هذه القضية ظاهراً بين الإفراط والتفريط، وهذه هي الحكمة، حيث فرق بين من لم يبلغ السابعة، وبين من بلغها، وكذلك من بلغ العاشرة يختلف أمره، ثم من أدرك الحلم يختلف عما سبق... وهكذا، فقد نزَّل الأمور منازلها، ووضع الأشياء مواضعها. وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

المبحث الثالث
أنواع الحكمة

النوع الأول: حكمة علمية نظرية، وهي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً، قدراً وشرعاً.

النوع الثاني: حكمة عملية، وهي وضع الشيء في موضعه[1].

فالحكمة النظرية مرجعها إلى العلم والإدراك، والحكمة العملية مرجعها إلى فعل العدل والصواب، ولا يمكن خروج الحكمة عن هذين المعنيين؛ لأن كمال الإنسان في أمرين: أن يعرف الحق لذاته، وأن يعمل به، وهذا هو العلم النافع والعمل الصالح.

وقد أعطى الله ﷻ أنبياءه ورسله ومن شاء من عباده الصالحين هذين النوعين، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ وهو الحكمة النظرية، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء: ٨٣) وهو الحكمة العملية.

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ (طه: ١٤) وهو الحكمة النظرية، ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ وهو الحكمة العملية.

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، وهي الحكمة النظرية، ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠ ـ ٣١) وهو الحكمة العملية.

وقال في شأن محمد ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهو الحكمة النظرية،

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٧٨).

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ (محمد: ١٩) وهو الحكمة العملية.

وقال في جميع الأنبياء: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ وهو الحكمة النظرية، ثم قال: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ (النحل: ٢) وهو الحكمة العملية[١].

الحكمة العملية لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: (أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه). لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم ولا تتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فتفوتها، وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض، وتعدي الحق كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد، وتعجيلها قبل وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله، وهذا يكون فعل ما ينبغي على الوجه الأكمل في الوقت المناسب[٢].

الدرجة الثانية: معرفة عدل الله في وعيده، وإحسانه في وعده، وعدله في أحكامه الشرعية والكونية الجارية على الخلائق، فإنه لا ظلم فيها ولا جور.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (النساء: ٤٠)، وكذلك معرفة بره في منعه، فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يغيض ما في يمينه سعة عطائه، فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا في موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته، فما أعطى إلا بحكمته ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

الدرجة الثالثة: البصيرة، وهي قوة الإدراك والفطنة والعلم والخبرة[٣] والبصيرة

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، (٧/ ٦٨).
(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٧٩).
(٣) المعجم الوسيط، مادة: بصر، (١/ ٥٩).

هي أعلى دجات العلم التي تكون نسبة العلم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ثم المخلصين من أتباع النبي ﷺ، وهي أعلى درجات العلماء[١] قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يوسف: ١٠٨) فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس أن هذه طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، وعلم وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي[٢].

والبصيرة في الدعوة إلى الله تنقسم إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يدعو الداعية على بصيرة فيما يدعو إليه بأن يكون عالماً بالحكم الشرعي فيما يدعو إليه، لأنه قد يدعو إلى شيء يظنه واجباً وهو في شرع الله غير واجب فيلزم عباد الله بما لم يلزمهم الله به، وقد يدعو إلى ترك شيء يظنه محرماً وهو في دين الله غير محرم، فيحرم على عباد الله ما أحله الله لهم.

الأمر الثاني: أن يكون على بصيرة في حال المدعو، فلا بد من معرفة حال المدعو: الدينية، والاجتماعية، والاعتقادية والنفسية والعلمية، والاقتصادية حتى يقدم له ما يناسبه.

الأمر الثالث: أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة[٣] وقد رسم الله طرق الدعوة ومسالكها في آيات كثيرة منها: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف: ١٠٨) وهذه قاعدة قوية متينة في الدعوة إلى الله تعالى ثم تكون هذه القاعدة متفرعة إلى ثلاثة أبواب: وهي الدعوة إلى الله: بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن[٤]. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل: ١٢٥).

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٤٨٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٩٦)، وتفسير السعدي (٤/ ٦٣).

(٣) انظر: زاد الداعية إلى الله للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٧).

(٤) هذا التقسيم الجيد للقاعدة والثلاثة أبواب، للشيخ عبد القادر شيبة الحمد في محاضرة بالرياض عنوانها: طريق الدعوة إلى الله، سنة ١٤٠٨هـ.

أما الباب الرابع: في الدعوة إلى الله باستخدام القوة عند الحاجة إليها كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ (العنبكوت: ٤٦) ولا شك أن أحسن الطرق في دعوة الناس طريقة القرآن، ومخاطبته لهم، ومجادلتهم[١].

المبحث الرابع
أركان الحكمة

توطئة: الحكمة أركان ودعائم تقوم عليها وأركانها التي تقوم عليها، ثلاثة هي: العلم، والحلم، والأناة. وآفاتها وأضدادها ومعاول هدمها: الجهل، والطيش، والعجلة، ولا حكمة لجاهل ولا طائش، ولا عجول[٢].

أولاً: العلم:

العلم من أعظم أركان الحكمة، ولهذا أمر الله به وأوجبه قبل القول والعمل، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ (محمد: ١٩) وقد بوَّب الإمام البخاري رحمه الله لهذه الآية بقوله: (باب: العلم قبل القول والعمل)[٣].

وذلك أن الله أمر نبيه بأمرين: بالعلم، ثم العمل، والمبدوء به العلم في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فدل ذلك على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو مقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل[٤] والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ وقد يكون علم من غير الرسول، ولكن في أمور دنيوية، مثل الطب والحساب، والفلاحة والتجارة[٥] ولا شك

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٥٨ ـ ١٧٣).
(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٨٠).
(٣) البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ١٥٩).
(٤) انظر: فتح الباري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ١٦٠).
(٥) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ١٣٦، ٦/ ٣٨٨).

أنه لا ينهي عن العلم إلا قطاع الطريق، ونواب إبليس وشرطه[١].

وقد قسم الإمام ابن تيمية رحمه الله العلم النافع ـ الذي هو أحد دعائم الحكمة وأسسها ـ إلى ثلاثة أقسام، فقال رحمه الله: (والعلم الممدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثه الأنبياء كما قال النبي ﷺ: **«إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[٢].

وهذا العلم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: علم بالله وأسمائه وصفاته وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما.

القسم الثاني: علم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلة، وهو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار، ونحو ذلك.

القسم الثالث: العلم بما أمر الله به من العلوم المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها، وأقوال الجوارح وأعمالنا، وهذا يندرج فيه: العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، ويندرج فيه ما وجد من كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال فإن ذلك جزء من جزء من علم الدين.

والناس إنما يغلطون في هذه المسائل؛ لأنهم يفهمون مسميات الأسماء الواردة في الكتاب والسنة، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة، فَرب رجل يحفظ حروف العلم التي أعظمها حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم ولا من الإيمان ما يتميز به على من أوتي القرآن ولم يؤت حفظ حروف العلم قال ﷺ: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها**

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٢/ ٤٦٤).

(٢) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣/ ٣١٧).

ريح وطعمها مر»[١].

فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره، ولا يكون مؤمناً؛ بل يكون منافقاً، فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه، وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان، وأما الذي أوتي العلم والإيمان، فهو مؤمن حكيم عليم، وهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم مع اشتراكهما في الإيمان فهذا أصل يجب معرفته[٢].

والعلم النافع هو أعظم أركان الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً وهو ما كان مقروناً بالعمل، أما العلم بلا عمل، فهو حجة على صاحبه يوم القيامة، ولهذا حذر الله المؤمنين من أن يقولوا ما لا يفعلون، رحمة بهم، وفضلاً منه وإحساناً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ (الصف: ٢ ـ ٣).

وحذَّرهم من كتمان العلم، وأمرهم بتبليغه للبشرية على حسب الطاقة والجهد، وعلى حسب العلم الذي أعطاهم الله ﷻ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾ (البقرة: ١٥٩).

وهذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتموه من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله من البينات الدالَّة على الحق، المظهرة له، والعلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، ومن نبذ ذلك، وجمع بين المفسدتين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، لعنه الله ولعنه جميع الخليقة؛ لسعيهم في غش الخلق وفساد دينهم، وإبعادهم عن رحمة الله، فجُوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح دينهم؛ ولأنه قربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله[٣].

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، (٩/ ٥٥٥).
(٢) انظر: فتاوى ابن تيمية بتصرف، (١١/ ٣٩٦).
(٣) انظر: تفسير عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي (١/ ١٨٦).

وقد بين ﷺ أن: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[١] فتبين بذلك وغيره أن العلم النافع الذي هو أحد أركان الحكمة لا يكون إلا مع العمل به، ولهذا قال سفيان[٢] في العمل بالعلم والحرص عليه: (أجهل الناس من ترك ما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله)[٣] وقال رحمه الله: (يراد للعلم: الحفظ، والعمل، والاستماع، والإنصات، والنشر)[٤].

وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (تعلموا، تعلموا فإذا علمتم فاعملوا)[٥].

وقال رضي الله عنه: (إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبخ نفسه)[٦].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقاً فيضاهي بعضهم بعضاً، حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل)[٧].

وقال أبو الدرداء[٨] رضي الله عنه: (لا تكون تقيّاً حتى تكون عالماً، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً)[٩].

---

(١) الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٥/ ٢٩).
(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران، الإمام الكبير شيخ الإسلام، ولد سنة (١٠٧هـ) عاش ٩١ سنة. انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤ ـ ٤٧٤).
(٣) أخرجه الدارمي في سننه، في المقدمة، باب فضل العلم والعمل، (١/ ٨١).
(٤) نفس المصدر السابق (١/ ٨١).
(٥) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٩٥).
(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٦).
(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع العلم وفضله (٢/ ٧).
(٨) هو الصحابي الجليل عويمر بن عامر، وقيل: مالك أو ثعلبة بن قيس بن أمية الخزرجي الأنصاري، أسلم يوم بدر، وشهد أحداً وما بعدها، وهو حكيم هذه الأمية، توفي لسنتين بقيتا من خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل بعد صفين. الإصابة (٣/ ٤٦).
(٩) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧).

قال الشاعر:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة ... عليك ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أوتيت علماً فإنما ... يصدق قول المرء ما هو فاعله[١]

وبهذا يتضح أن العلم لا يكون من دعائم الحكمة ـ التي هي من ملامح الوسطيَّة ـ إلا باقترانه بالعمل، وقد كان علم السلف الصالح ـ وعلى رأسهم أصحاب النبي ﷺ ـ مقروناً بالعمل، ولهذا كانت أقوالهم وأفعالهم، وسائر تصرفاتهم تزخر بالحكمة، ولهذا قال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[٢].

وقد دعا النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالحكمة والفقه في الدين، فقال ﷺ: «**اللهم علمه الحكمة**» وفي لفظ «**اللهم علمه الكتاب**» وفي لفظ «**اللهم فقهه في الدين**»[٣].

فكان رضي الله عنه حبراً للأمة في علم الكتاب والسنة والعمل بهما استجابة لدعوة النبي ﷺ.

أسباب وطرق تحصيل العلم:

والعلم النافع له أسباب ينال بها وطرق تسلك في تحصيله وحفظه من أهمها:

١ ـ أن يسأل العبد ربه العلم النافع، ويستعين به تعالى، ويفتقر إليه وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بسؤاله أن يزيده علماً إلى علمه[٤].

فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤)، وقد كان ﷺ يقول: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً**»[٥].

٢ ـ ومنها الاجتهاد في طلب العلم، والشوق إليه، والرغبة الصادقة فيه ابتغاء

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧).
(٢) البخاري مع الفتح، في كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (١/ ١٦٥).
(٣) البخاري مع الفتح، في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس (٧/ ١٠٠).
(٤) انظر: تفسير الإمام الطبري (٣/ ٢٣٣)، وتفسير العلامة السعدي (٥/ ١٩٤).
(٥) الترمذي: كتاب الدعوات، باب العفو والعافية (٥/ ٥٧٨).

مرضاة الله تعالى، وبذل جميع الأسباب في طلب الكتاب والسنة[١] وقد جاء رجل إلى أبي هريرة ﷺ فقال: (إني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه، فقال أبو هريرة ﷺ: كفى بتركك له تضيعاً)[٢]. ولهذا قال بعض الحكماء عندما سئل: ما السبب الذي ينال به العلم؟ قال: بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع، والفراغ له يجتمع، (علِّم علمك من يجهل، وتعلم ممن يعمل، فإنك إن فعلت ذلك علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت)[٣].

ولهذا قال الإمام الشافعي ﷺ:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبئك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص، واجتهاد وبلغة ... وصحبة أستاذ وطول زمان[٤]

٣ ـ ومنها: اجتناب جميع المعاصي بتقوى الله تعالى فإن ذلك من أعظم الوسائل إلى حصول العلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢) وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٩) وهذا واضح بين أن من اتقى الله جعل له علماً يفرق به بين الحق والباطل[٥]. ولهذا قال عبد الله بن مسعود ﷺ: (إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله)[٦].

وقال عمر بن عبد العزيز[٧] ﷺ: (خمس إذا أخطأ القاضي منهن خطأ[٨] كانت فيه وصمة[٩] أن يكون: فهماً، حليماً، عفيفاً، صليباً[١٠] عالماً سؤولاً عن العلم[١١].

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٥/ ١٩٤).
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٠٤).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٠٢ ـ ١٠٣).
(٤) ديوان الشافعي (١١٦).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٨)، وتفسير السعدي (١/ ٣٤٩).
(٦) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٩٦).
(٧) هو الإمام العلامة، المجتهد الزاهد العابد، الراشد السيد أمير المؤنين، كان من أئمة الجهاد والاجتهاد، ومن الخلفاء الراشدين، سيرته العطرة محل عبرة وقدوة، توفي عليه رحمة الله عام (١٠١هـ)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤)، تهذيب التهذيب (٣/ ٨٨)، حلية الأولياء (٥/ ٢٥٣).
(٨) خطة: خصلة. انظر: فتح الباري (١٣/ ١٤٦).
(٩) وصمة: عيباً. انظر: فتح الباري (١٣/ ١٤٦).
(١٠) قوياً شديداً، يقف عند الحق ولا يميل مع الهوى. انظر الفتح (١٣/ ١٤٦).
(١١) البخاري مع الفتح، كتاب الأحكام، باب متى يستوجب الرجل القضاء؟ (١٣/ ١٤٦).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن علم الله نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي[١]

وقال الإمام مالك للإمام الشافعي رحمهما الله تعالى: (إني أرى الله قد جعل في قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية)[٢].

٤ ـ ومنها: عدم الكبر والحياء عن طلب العلم، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: (نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)[٣].

وقال مجاهد: (لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر).

٥ ـ ومنها: بل أعظمها ولبها: الإخلاص في طلب العلم، قال ﷺ: «**من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله ﷻ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»[٤]، يعني ريحها.

٦ ـ **العمل بالعلم**: ومما تقدم يتضح أن العلم لا يكون ركناً من أركان الحكمة ودعائمها إلا بالعمل، والإخلاص، والمتابعة، وبذلك تدخل هذه الأمور في ملامح الوسطيَّة.

ثانياً: الحلم:

الحلم: بالكسر: العقل[٥]، وحلم حلماً: تأنَّى وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة، وصفح، وعقل[٦] ومن أسماء الله تعالى: (الحليم) وهو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو منته إليه[٧]

---

(١) وكيع بن الجراح بن مليح، الإمام الحافظ، محدث العراق، ولد سنة (١٢٩هـ) ومات سنة (١٩٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ١٤٠)، وتهذيب التهذيب (١١/ ١٠٩).
(٢) ديوان الشافعي (٨٨)، وانظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم (١٠٤).
(٣) البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الحياء مع العلم (١/ ٢٢٨).
(٤) أبو داود، كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله، (٣/ ٣٢٣).
(٥) القاموس المحيط، باب الميم، فصل الحاء، (١٤١٦).
(٦) المعجم الوسيط، مادة: حلم (١/ ١٩٤).
(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، حرف الحاء مع اللام (١/ ٤٣٤).

والحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب[١].

والحلم: هو حالة متوسطة بين رذيلتين: الغضب، والبلادة فإذا استجاب المرء لغضبه بلا تعقل ولا تبصر كان على رذيلة، وإن تبلد، وضيع حقه ورضي بالهضم والظلم كان على رذيلة، وإن تحلى بالحلم مع القدرة، وكان حلمه مع من يستحقه كان على فضيلة.

وهناك ارتباط بين الحلم وكظم الغيظ، وهو أن ابتداء التخلق بفضيلة الحلم يكون بالتحلم: وهو كظم الغيظ، وهذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة، لما في كظم الغيظ من كتمان ومقاومة واحتمال، فإذا أصبح ذلك هيئة راسخة في النفس، وأصبح طبعاً من طبائعها كان ذلك هو الحلم، والله أعلم[٢].

وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٥) ونلاحظ أن الآيات التي وصفت الله بصفة الحلم قد قرنت صفة الحلم في الغالب بعد إشارة سابقة إلى خطأ واقع، أو تفريط في أمر محمود، وهذا أمر يتفق مع الحلم؛ لأنه تأخير عقوبة: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (فاطر: ٤٥).

ونجد أيضاً أن عدداً من الآيات التي وصفت الله بالحلم قد قرن فيها ذكر الحلم بالعلم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج: ٥٩) وهذا يفيد ـ والله أعلم بمراده ـ أن كمال الحلم يكون مع كمال العلم، وهذا من أعظم أركان الحكمة[٣] التي هي من أهم ملامح الوسطيَّة.

ومما يؤكد أن الحلم من أعظم أركان الحكمة ـ التي ينبغي للداعية أن يدعو بها إلى الله ـ مدح النبي ﷺ للحلم وتعظيمه لأمره وأنه من الخصال التي يحبها الله، قوله للأشج[٤]: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[٥].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة: حلم (١٢٩).

(٢) انظر: مفردات غريب القرآن (١٢٩)، أخلاق القرآن للشرباصي (١/ ١٨٢)، الأخلاق الإسلامية عبد الرحمٰن الميداني (٢/ ٣٢٦).

(٣) أخلاق القرآن للشرباصي (١/ ١٨٥).

(٤) المنذر بن عائذ بن المنذر العصري، أشجع عبد القيس، كان سيد قومه، رجع بعد إسلامه إلى البحرين مع قومه، ثم نزل البصرة، بعد ذلك ومات بها ﷺ. انظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٦٧).

(٥) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/ ٤٨).

وفي رواية الأشج: يا رسول الله، أنا تخلقت بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: «**بل الله جبلك عليهما**». قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[١].

وسبب قول النبي ﷺ ذلك للأشج ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي ﷺ وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته، ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ فقربه النبي ﷺ وأجلسه إلى جانبه، ثم قال لهم النبي ﷺ: «**تبايعون على أنفسكم وقومكم؟**» فقال القوم: نعم، فقال الأشج: يا رسول الله، إنك لم تزاول الرجل على شيء أشد عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا، ونرسل من يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا، ومن أبى قاتلناه، قال: «**صدقت، إن فيك خصلتين...**»[٢].

فالأناة: تربصه حتى نظر في مصالحه، ولم يعجل، والحلم: هذا القول الذي قاله، الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب...[٣] ومما يؤكد أن الحلم من أعظم أركان الحكمة ودعائمها العظام أنه خلق عظيم من أخلاق النبوة والرسالة، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم عظماء البشر، وقدوة أتباعهم من الدعاة إلى الله والصالحين في الأخلاق المحمودة كافة.

وقد واجه كل واحد منهم من قومه ما يثير الغضب، ويغضب منه عظماء الرجال ولكن حملوا عليهم، ورفقوا بهم حتى جاءهم نصر الله، وعلى رأسهم إمامهم وسيدهم، وخاتمهم ﷺ ولم يكن غريباً أن يوجهه الله تعالى إلى قمة هذه السيادة حين يقول له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ (الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠٠) ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، باب في قبلة الجسد (٤/٣٥٧)، وأحمد (٤/٢٠٦، ٣/٢٣).
(٢) مسلم وشرح النووي، كتاب الإيمان، باب مبايعة النبي ﷺ لوفد عبد قيس (١/١٨٩).
(٣) شرح النووي، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/١٨٩).

وقد بلغ ﷺ في حلمه، وعفوه في دعوته إلى الله تعالى الغاية المثالية، والدلائل على ذلك كثيرة جدّاً منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

١ ـ عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيّ فجذبه بردائه جذبةً شديدة حتى نظرت صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء»[(١)].

وهذا من روائع حلمه ﷺ وكماله وحسن خلقه وصفحه الجميل وصبره على الأذى في النفس والمال والتجاوز عن جفاء من يريد تألفه على الإسلام، وليتأس به الدعاة إلى الله، والولاة بعده في حلمه وخلقه الجميل من الصفح، والإغضاء، والعفو، والدفع بالتي هي أحسن[(٢)].

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله ﷺ: «أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلق بها سيفه، ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: **«إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلته»**، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: «الله» ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس»[(٣)].

وفي هذا دلالة واضحة على قوة يقينه بالله، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال، وشدة رغبته في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام، ولهذا ذكر أن هذا الأعرابي رجع إلى قومه وأسلم، واهتدى به خلق كثير[(٤)]. وهذا مما يؤكد أن الحلم من أعظم أركان الحكمة ودعائمها.

٣ ـ ومن عظيم حلمه عدم دعائه على من آذاه من قومه، وقد كان باستطاعته أن

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب فرض الخمس، باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخُمس (٦/ ٢٥١).

(٢) انظر: شرح النووي مع مسلم كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه: (٧/ ١٤٧).

(٣) البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه (٦/ ١١٣).

(٤) البخاري مع الفتح: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٧/ ٤٩٣).

يدعو عليهم فيهلكهم الله ويدمرهم، ولكنه ﷺ حليم حكيم يهدف إلى الغاية العظمى، وهي رجاء إسلامهم أو إسلام ذريتهم، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(١).

ومما يدل على أن الحلم ركن من أركان الحكمة ملازمة صفة الحلم للأنبياء قبل النبي ﷺ في دعوتهم إلى الله تعالى.

فهذا إبراهيم أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، قد بلغ من الحلم مبلغاً عظيماً حتى وصفه الله بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ (التوبة: ١١٤).

فقد كان إبراهيم كثير الدعاء، حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ (مريم: ٤٦ ـ ٤٨).

فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر(٢) ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤) وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين، كانوا من أعظم الناس حلماً مع أقوامهم في دعواتهم إلى الله تعالى(٣).

ومن وراء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأتي الدعاة إلى الله والصالحون من أتباعهم، إذا كان الله ﷻ قد جعل محمداً ﷺ مثلاً عالياً في الحلم، فقد أراد لأتباعه أن يسيروا على نهجه وسنته، ولذلك يقول تعالى عن الأخيار من هؤلاء: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ (الفرقان: ٦٣) فمن صفاتهم أنهم أصحاب حلم، فإذا سفه عليهم الجهال بالقول السيىء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً كما كان رسول الله ﷺ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً.

---

(١) مسلم مع شرح النووي: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٢/ ١٥٠).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩٦)، والبغوي (٢/ ٣٣٢).
(٣) انظر: موسوعة الأخلاق للشرباصي (١/ ١٨٥).

وينبغي أن يُعلم أن الغضب لله يكون محموداً، ولا يدخل في الغضب المذموم، فالغضب المحمود يكون من أجل الله عندما ترتكب حرمات الله، أو تترك أوامره ويستهان بها، وهذا من علامات قوة الإيمان ولكن بشرط أن لا يخرج هذا الغضب عن حدود الحلم والحكمة، وقد كان رسول الله ﷺ يغضب لله إذا انتهكت محارمه، وكان لا ينتقم لنفسه، ولكن إذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء، ولم يضرب بيده خادماً، ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله، وقد خدمه أنس بن مالك ﷺ عشر سنوات، فما قال له أف قط، ولا قال له لشيء فعله: لم فعلت كذا؟، ولا لشيء لم يفعله ألا فعلت كذا[1].

وهذا لا ينافي الحلم والحكمة، بل الغضب لله في حدود الحكمة من صميم الحلم والحكمة وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١) وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ (آل عمران: ١٦٤) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ (الجمعة: ٢) وغير ذلك من الآيات.

وممن فسر الحكمة المقرونة بالكتاب والسنة: الإمام الشافعي[2] والإمام ابن القيم[3]، وغيرهما من الأئمة[4].

---

(١) البخاري مع الفتح: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الغضب لأمر الله (١٠/ ٥٣٣).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ينتهي نسبه إلى عبد مناف جد النبي ﷺ، ولد رحمه الله بغزة سنة (١٥٠هـ) وتلقى العلم بمكة والمدينة، هو إمام المذهب الشافعي، وتتلمذ على يديه علماء أجلاء منهم الإمام أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وإبراهيم بن خالد الكلبي، وغيرهم، وكانت له مآثر جليلة ومناقب عظيمة، توفي رحمه الله بمصر في رجب من سنة (٢٠٤هـ) من مؤلفاته (الأم، الرسالة)، انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٢٥١)، وطبقات الشافعية (١١/ ١٤).

(٣) هو الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، ولد رحمه الله بدمشق سنة ٦٩١هـ، وتوفي في رجب سنة ٧٥١هـ تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ولازمه، ويعتبر من المجتهدين، وله مصنفات كثيرة جدّاً في مختلف العلوم والفنون منها: إعلام الموقعين، وزاد المعاد في هدي خير العباد، الطرق الحكمية، ذيل طبقة الحنابلة لابن رجب، (٢/ ٤٤٧)، وابن القيم حياته وآثاره.د. بكر عبد الله أبو زيد (٧).

(٤) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٧٨)، والتفسير القيم (٢٢٧).

ثالثاً: الأناة

الأناة في اللغة: التثبت وعدم العجلة، يقال: تأنَّى في الأمر: مكث ولم يعجل، والاسم منه: أناة[١] ويقال: تأنى في الأمر: ترفق، وتنظر، وتمهل، واستأنى به: انتظر به وأمهله،[٢] وتأنى الأناة بمعنى التبين والتثبت في الأمور، يقال: تبين في الأمر والرأي: تثبت، وتأنى فيه ولم يعجل[٣].

ويأتي التبين بمعنى: التبصر: التعرف والتأمل، يقال: تبصر الشيء، وتأمل في رأيه تبين ما يأتيه من خير أو شر[٤] وعلى ضوء ما تقدم تكون الأناة هي: التصرف الحكيم بين العجلة والتباطؤ[٥].

والأناة مظهر من مظاهر خلق الصبر، وهي من صفات أصحاب العقل والرزانة، بخلاف العجلة فإنها من صفات الرعونة والطيش، وهي تدل على أن صاحبها لا يملك الإرادة القوية القادرة على ضبط نفسه تجاه انفعالاته العجولة، وبخلاف التباطؤ والتواني فهما من صفات أصحاب الكسل والتهاون بالأمور، ويدلان على أن صاحبهما لا يملك القدرة على دفع همته للقيام بالأعمال التي تحقق له ما يرجوه، أو ليس لديه همة عالية تنشد الكمال، فهو يرضى بالدنيات، وإيثار الراحة، والكسل عن القيام بالواجب.

والأناة تسمح للمسلم بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، فهي ركن من أركان الحكمة. وقد ذم الإسلام الاستعجال ونهى عنه، كما ذم التباطؤ والكسل ونهى عنه، ومدح الأناة وأمر بها وعمل على تربية المسلمين على الأناة والتثبت الحكيم في القيام بالأعمال وتصريف الأمور[٦]. قال تعالى للنبي ﷺ تربية له وتعليماً: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦ ـ ١٩).

فأمر سبحانه نبيه بعدم العجلة ومسابقة الملك في قراءته، وتكفل الله له أن يجمعه

(١) المصباح المنير: مادة: أني (١/ ٢٨).
(٢) انظر: مختار الصحاح، مادة: أنى: ١٣، المعجم الوسيط: (١/ ٣١).
(٣) انظر: المعجم الوسيط، مادة أبان (١/ ٨٠)، ومادة ثبت (١/ ٩٣).
(٤) انظر: القاموس المحيط، باب الراء، فصل الباء (٤٤٨).
(٥) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبد الرحمٰن الميداني (٢/ ٣٥٢).
(٦) الأخلاق الإسلامية وأسسها (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤) بتصرف.

في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) وأمر سبحانه عباده المؤمنين والدعاة إلى الله تعالى بالتأني في الأمور والتثبت فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ (الحجرات: ٦) قرأ الجمهور: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾. من التبين، وهو التأمل، وهناك من قرأ: ﴿فتثبتوا﴾، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر[٢].

ولعظم أمر الأناة والتبين أمر الله بها حتى في جهاد الكفار في سبيل الله الذي هو من أعظم وسائل الدعوة إلى الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٩٤﴾ (النساء: ٩٤).

ومن المعلوم أن الأمور قسمان: أمور واضحة، وأمور غير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الداعية خاصة والمسلمين عامة بحاجة إلى التثبت فيها والتبين، فإن ذلك يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف عن شرور عظيمة ما يجعل المسلم في سلامة عن الزلل، وبذلك يعرف دين العبد وعقله ورزانته[٣].

ومما يزيد الآية السابقة وضوحاً ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تلك الغنيمة، وقرأ ابن عباس السلام[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٠).
(٢) انظر: فتح القدير، للإمام الشوكاني (٤/ ٦٠).
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان للسعدي (٢/ ١٣٢).
(٤) البخاري مع الفتح: كتاب التفسير، سورة النساء، باب: ولا تقولوا (٨/ ١٠٧).

وعن أسامة بن زيد[١] ﷺ قال: «بعثنا رسول الله إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، قال فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ قال: فقال لي: **«يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟»** قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذاً، قال: فقال: **«أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»**، قال فما زال يكررها حتى تمنَّيْتُ أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم»[٢].

وفي رواية قال: قلت يا رسول الله: إنما قالها خوفاً من السلاح قال: **«أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟»** فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[٣]. ولهذا كان النبي ﷺ أعظم الناس أناة وتثبتاً، فكان لا يقاتل أحداً من الكفار إلا بعد التأكد بأنهم لا يقيمون شعائر الإسلام، فعن أنس بن مالك ﷺ: «أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قوماً لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم...»[٤].

وكان ﷺ يعلم ويربي أصحابه على الأناة والتثبت في دعوتهم إلى الله تعالى ومن ذلك أنه كان يأمر أمير سريته أن يدعو عدوه قبل القتال إلى إحدى ثلاث خصال:

١ ـ الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين.

٢ ـ فإن أبوا الإسلام دعاهم إلى بذل الجزية.

٣ ـ فإن امتنعوا عن ذلك كله استعان بالله وقاتلهم[٥].

---

(١) هو حِب رسول الله ﷺ، وابن حبه أسامة بن زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي أبو محمد مولى رسول الله ﷺ استعمله رسول الله ﷺ على جيش فيه أبو بكر وعمر ، فلم ينفذ إلا في خلافة أبي بكر بعثه إلى الشام، ثم انتقل إلى المدينة فمات بها سنة (٥٤هـ). الإصابة: (١/ ٤٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٩٦).

(٢) البخاري مع الفتح: كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺ أسامة (٧/ ٥٨٩١).

(٣) مسلم مع شرح النووي: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، (٢/ ٩٨).

(٤) البخاري مع الفتح: بلفظه مطولاً، في كتاب الأذان، باب ما يحقن من الأذان من الدماء: (٢/ ١٠٧).

(٥) مسلم مع النووي: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٢/ ٣٧).

ومن تربيته لأصحابه ﷺ على الأناة وعدم العجلة قوله: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، واتوها تمشون، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**»(١).

والرسل عليهم الصلاة والسلام هم صفوة الخلق وقدوتهم، وهم أكمل الناس أناة وحلماً، وأعظمهم في ذلك وأوفرهم حظّاً محمد ﷺ. ومن أمثلة ذلك قصة سليمان مع الهدهد وتثبته وعدم عجلته، قال سبحانه عن ذلك: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ (النمل: ٢٠ ـ ٢١) نجد نبي الله سليمان النبي الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف، ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، ولا متسرعاً عجولاً، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يترك الأناة والتثبت ويقضي في شأنه قضاء نهائيّاً قبل أن يسمع منه ويتبين عذره، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل المتثبت ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي حجة قوية واضحة توضح عذره وتنفي المؤاخذة عنه(٢).

والداعية إلى الله ﷻ إذا تثبت، وتأمل في جميع أموره اكتسب ركناً من أركان الحكمة، ينبغي ألا تقتصر في منهجه المتكامل على التأني والتثبت في الأفعال والأقوال فحسب، بل عليه أن يجري ذلك على القلب في خواطره وتصوراته، وفي مشاعره وأحكامه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء: ٣٦) فلا يقول اللسان كلمة، ولا يرو حادثة ولا يحكم العقل حكماً، ولا يبرم الداعية أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة، حتى لا يبقى هنالك شك ولا شبهة في صحتها، وحينئذ يصل الداعية المسلم المتمسك بهذه الضوابط إلى أعلى درجات الأناة والحكمة والسداد بإذن الله تعالى(٣).

أما العجلة فهي مذمومة، قال سبحانه عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ (الزخرف: ٥٤) استخفهم وحملهم على الضلالة والجهل، واستخف عقولهم، يقال: استخفه عن رأيه إذا حمله على الجهل وأزاله عما كان عليه من الصواب(٤).

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة (٢/٤٥٣).
(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/٢٦٣٨).
(٣) المرجع السابق (٤/٢٢٢٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٠)، وشرح السنة للبغوي (١٣/)١٧٥.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ٦٠) ولا شك أن الإنسان قد خلق من عجل: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)، ولكنه بحمد الله إذا امتثل أمر الله وترك نهيه حسنت أخلاقه وطبائعه.

والعجلة لها أسباب ينبغي اجتنابها، منها: عدم النظر في العواقب وسنن الله في الكون، ومنها: الشيطان عدو الإنسان، وأساس العجلة من الشيطان، لأنه الحامل عليها بوسوسته، فيمنع من التثبت والنظر في العواقب، فيقع المستعجل في المعاطب والفشل[١]، ولذلك قيل:

يا صاحبي تلوما لا تعجلا إن النجاح رهين أن لا تعجلا

وقال عمرو بن العاص ﷺ: (لا يزال الرجل يجني من ثمرة العجلة الندامة)[٢].

وينبغي أن يعلم أن العجلة المذمومة ما كانت في غير طاعة، ومع عدم التثبت وعدم خوف الفوت، ولهذا قيل لبعض السلف: لا تعجل، فالعجلة من الشيطان، فقال: لو كان كذلك لما قال موسى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ (طه: ٨٤).

والخلاصة: أنه يستثنى من العجلة ما لا شبهة في خيريته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ (الأنبياء: ٩٠) وعن سعد بن أبي وقاص[٣] ﷺ قال الأعمش[٤]: ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ: «**التؤدة**[٥] **في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة**»[٦].

---

(١) شرح السنة للبغوي (١٣/ ١٧٦).

(٢) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة (٦/ ١٢٩).

(٣) هو أبو إسحاق سعد بن مالك بن أهيب ويقال له: ابن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري، شهد بدراً وما بعدها، وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، كان آخر العشرة المبشرين بالجنة وفاة، توفي بالعقيق سنة إحدى وخمسين، وقيل: ست، وقيل: ثمان، والثاني أشهر. انظر: الإصابة: (٣/ ٣١)، البداية والنهاية: (٨/ ٧٨).

(٤) هو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي، أبو محمد الكوفي الأعمش، ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع، لكنه يدلس، مات سنة سبع وأربعين ومائتين. انظر: تقريب التهذيب (٢٥٤) لابن حجر.

(٥) التؤدة: التأني. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود كتاب الأدب، باب الرفق (٣/ ١٥).

(٦) أبو داود: كتاب الأدب، باب الرفق، (٤/ ٢٥٥)، صحيح الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩١٣).

وبهذا يعلم أن الأناة في كل شيء محمودة وخير إلا ما كان من أمر الآخرة بشرط مراعاة الضوابط التي شرعها الله حتى تكون المسارعة مما يحبه الله تعالى. وبهذا ينتهي الركن الثالث من أركان الحكمة التي هي من أهم ملامح الوسطيَّة.

* * *

obeikandl.com